جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية (قسنطينة)

كلية الآداب والحضارة الاسلامية

قسم التاريخ

عنوان المقياس: المذاهب الفلسفية الكبرى

المستوى: جذع مشترك علوم انسانية سنة أولى

السداسي الثاني

التخصص: علوم انسانية

استاذ المقياس: سهيل سعيود

الدرس الأول
المذهب العقلي (1)

يطلق هذا الاسم على تلك النزعة الفلسفية التي تعلي من شأن العقل، وتجعل منه المصدر الأول للمعرفة، والأداة الأساسية التي يعتمد عليها في جميع مراحل المعرفة، والمرجع الذي يحتكم إليه للفصل في المسائل المتعلقة بالخير والشر، أو تلك المتعلقة بالحق والباطل والجمال والقبح. ونجد هذه النزعة في نظرية المعرفة والأخلاق والتاريخ واللاهوت والسياسة، وغيرها من المجالات. ونجد هذا الاتجاه بوضوح عند كل من ديكارت وسبينوزا ولايبنتز في الفلسفة الحديثة. وتتعارض هذه النزعة مع النزعة اللاعقلانية من حيث أن هذه الأخيرة ترى ان العقل قاصر عن بلوغ الحقيقة، وأننا نحتاج الى ان نسلك سبيلا آخر غير سبيل العقل، كالحدس والالهام والذوق الصوفي، كما هو الحال عند أبي حامد الغزالي في الفلسفة الاسلامية قديما وهنري برغسون في الفلسفة الغربية المعاصرة ؛ كما تتعارض النزعة العقلية مع النزعة التجريبية في المعرفة. وقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر في أوروبا نقاشا فلسفيا واسعا بين أصحاب النزعة العقلية وأصحاب النزعة التجريبية.

وهكذا اذن، فالعقلانية هي مذهب فلسفي يقول بأولوية العقل في المعرفة، وأن المعارف كلها تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية والضرورية التي يحوز عليها العقل، والتي ليست متولدة من الحس والتجربة. كما يؤكد

أصحاب هذه النزعة على ان الأشياء لا يمكن ان يكون لها وجود بمعزل عن الذهن. وأما التجربة، فهي في نظر العقليين أدنى مرتبة من العقل، وأن المعارف التي نحصل عليها عن طريقها لا يمكن الوثوق بها أو التعويل عليها.

مبادئ ومسلمات المذهب العقلي:

تقوم النزعة العقلية على مبدأ أساسي يقول ان اصل المعرفة ومصدرها الأول هو العقل، وليس التجربة. فجميع المعارف التي يملكها الانسان، مهما تسلسلت حلقاتها، ترتد في نهاية الأمر إلى مصدر أول ووحيد هو العقل؛ وأما التجربة، فتعتبر حلقة ضمن السلسلة، ولا يمكن لها ان تكون بأي حال من الأحوال مصدرا أول للمعرفة. ويتفرع عن هذا المبدأ أربع مسلمات جزئية هي:

المسلمة الأولى: ان ما يميز الانسان عن الحيوان هو العقل، لا الحواس؛ والعقل هو قوة فطرية موجودة لدى جميع الناس، يعتمدون عليها في معارفهم العملية والنظرية؛ وأما الحواس فموضوعها عالم الأشياء، ومعطياتها تكون دوما متغيرة، ولا تثبت على حال.

يرى اصحاب المذهب العقلي ان العقل هو ملكة ذهنية يعتمد عليها الانسان في تحصيل المعرفة واصدار الاحكام وتحديد سلوكه بناء على هذه المعرفة؛ فهو مصدر جميع افكاره، وهو قوة فطرية يقوم على مبادئ كلية يجعل صاحبه فوق كل سلطة. ولذلك نجد العديد من المفكرين والفلاسفة يرفعون من قدر العقل وقالوا بعصمته ووهبوه ثقة مطلقة، ووصفوه بأنه نور خارق ومصدر لكل اصناف المعرفة الحقيقية، لا يخضع للاعراف والتقاليد. وقد حاول الفيلسوف الفرنسي رنيه ديكارت (1596-1650) René Descartes رد الاعتبار للعقل في القرن السابع عشر، الذي جاء بعد عصر النهضة، وكان لفلسفته ذات النزعة العقلية أثر كبير في ان استرد العقل سلطانه، بعد ان حطت من شأنه مدرسة الشكاك التي كان قد تزعمها في فرنسا الفيلسوف ميشال دي مونتاني (Michel de Montaigne) الذي توفي في 1592. ورفض ديكارت سلطة الكنيسة في الامور العلمية والدنيوية، كما رفض سلطة أرسطو، أي أن يسلم بفكرة لمجرد ان قالت بها الكنيسة او قال بها ارسطو، ورد الحقيقة الى العقل وحده، وجعل البداهة مهي المعيار الذي ينبغي ان يحتكم إليه في تحديد الصواب والخطأ.

كما يذهب اصحاب المذهب العقلي الى التوفيق بين العقل والوحي، ويقولون ان المبادئ الاساسية للدين فطرية وبديهية، واننا نستطيع الوصول إليها عن طريق العقل وحده؛ وهو ما قد يفهم منه انه يمكن الاستغناء

عن الوحي، ما دامت مبادؤه الاساسية مغروسة في الفطرة الانسانية؛ ومع ذلك فالعقل يتوافق مع هذه المبادئ ويرفض التسليم بكل ما يتعارض مع منطق العقل ومسلماته الاساسية. وعليه يؤكد اصحاب هذا المذهب على ان العقل يظل المعيار الاخير الذي نقيس به حقائق الوحي. وقد كان ديكارت يجل العقل بقدر ما يجل الله ويعظمه الذي أودع فيه العقل وزوده به.

ويقوم العقل عند اصحاب هذا المذهب على مبادئ كونية، أي عالمية، يتفق حولها البشر جميعا، ولا تختص بشعب دون آخر او بأمة دون اخرى، وإنما هي موجودة عند جميع الناس. وهذه المبادئ يدركها المرء بمجرد ان يصبح قادرا على الادراك، من غير ما حاجة الى التجربة، ولا يختلف فيها مع غيره من البشر، لأن الناس جميعا يملكون بالفطرة هذه المبادئ الثابتة. وقد عبر ديكارت عن هذه الفكرة في عبارة مشهورة له قال فيها: «العقل أعدل الاشياء قسمة بين الناس». فهذه المبادئ ليست من صنعنا، ولا هي من ثمار الخبرة، بل هي تولد معنا، وهي مزروعن فينا وتشكل اساس جميع افكارنا، كمبدأ الهوية الذي يقول ان الشيء هو عين ذاته ولا يمكن ان يكون غيره، ومبدأ عدم التناقض الذي يقول ان الشيء لا يمكن ان يكون موجودا وغير موجود في الوقت نفسه، والمبادئ الرياضية كقولنا، العددان المساويان لعدد ثالث متساويان، ومنها ايضا البديهيات المنطقية، كقولنا: الكل اكبر من جزئه.؛ ومنها ايضا المبادئ الاخلاقية الاولية التي يتفق حولها جميع الناس، ومنها ايضا الحقائق الميتافيزيقية الاولية، كفكرة الخالق سبحانه وتعالى. وقد سمى فلاسفة الاسلام هذه المبادئ المعقولات الاولى او الضروريات، وقالوا انها تحصل للانسان منذ أول أمره من حيث لا يشعر، ولا يدري كيف ومن أين حصل عليها؛ وهي قضايا يصدق بها العقل الصريح لذاته وبفطرته التي فطره الله عليها، لا لسبب من الاسباب الخارجية، من تعلم او خبرة، ولا تدعو إليها قوة الوهم أو أي قوة اخرى من قوى النفس. ولما كانت هذه المبادئ بسيطة وواضحة بذاتها، فلا يمكن ان يشوبها الخطأ. ولهذا قال عنها ديكارت انها افكار فطرية لا يخشى منها الضرر، لأنها لا توقعنا في الخطأ أبدا؛ فهي متصلة بتركيبة العقل نفسه، ولا يمكن فصلها عنه او فصله عنها؛ وعلى هذا الاساس قال ديكارت ان فكرتنا عن وجود أنفسنا وعن وجود الله تعالى صحيحتان، لأننا نجدهما مغروستين فينا، فهما اذن فطريتنان، ثم لأنهما واضحتان اشد ما يكون الوضوح.

وسبب استغناء هذه المبادئ عن عالم الاشياء، كما يرى ديكارت، هو ان الله تعالى قد غرس فينا فطريا بعض الافكار، مثل فكرة الله، والمبادئ الرياضية والمنطقية الاولية، وبهذا صار في مقدور العقل ان يحصل

على هذه الافكار من ذاته، ومن ذاته فقط؛ فالعقل يملك اذن بفضل الله الاستعداد الفطري والطبيعي، لأنه يجد في ذاته الافكار التي تدل على ذوات حقيقية، أزلية وثابتة.

وبهذا صار بمقدور العقل أن يوفر اليقين والتماسك الذين يطمح إليهما كل باحث عن الحقيقة، دونما حاجة الى التجربة؛ بل ان التجربة تقصر عن بلوغه، لأنها تزودنا بمعلومات متفرقة لا ترقى الى مرتبة اليقين، اضافة الى أنها نسبية ونتائجها احتمالية. فبفضل العقل يكتشف الانسان اذن خداع الحواس، وهو ما عبر عنه ديكارت عند عرضه لتجربة الشك في كتابه **تأملات ميتافيزيقية**: «كل ما تلقيته حتى الآن على أنه اصدق الاشياء وأوثقها قد تعلمته من الحواس، غير أنني اختبرت احيانا هذه الحواس فوجدتها خداعة، وأنه من الخطأ ان نطمئن الى من خدعونا، ولو مرة واحدة».

الدرس الثاني

المذهب العقلي(2)

المسلمة الثانية: يحوز العقل بشكل قبلي على جميع الحقائق البديهية التي تشكل مبادئ اساسية في كل معرفة، مثل مبدأ الهوية، ومبدأ عدم التناقض ومبدأ السبب الأول...

يؤكد اصحاب المذهب العقلي على ان الحقائق الاولى (المبادئ الرياضية والمنطقية) تدرك بالعقل عن طريق الحدس، ومن غير مقدمات. والحدس هو نور فطري غريزي يمكن العقل من ادراك فكرة ما دفعة واحدة، وليس على التعاقب. فهو ادراك مباشر غير مسبوق بمقدمات، ولا يقوم على اختبار تجريبي، أو تأمل عقلي، لأنه من الوضوح بحيث يستغني عن أي شيء؛ وهو لا يقوم على شهادة الحس، ولا على أحكام الخيال الخداع، بل هو عمل عقلي محض، به تدرك الافكار والطبائع البسيطة التي لا تنقسم الى اجزاء، كالوجود والوحدة والزمان والمكان والامتداد. وقد قسم ديكارت الافكار الى ثلاثة اصناف: صنف عرضي مستمد من العالم الخارجي، كفكرة الشمس والحرارة والالوان، وسائر الاجسام الخارجية، وهذه افكار غامضة لا تشكل معرفة صحيحة؛ وصنف مصطنع ركبه العقل من الافكار العرضية، كفكرة عروس البحر والحصان الذي يطير بجناحين، وهذه الافكار مركبة؛ وصنف فطري، مثل فكرة اللامتناهي وفكرة الكمال، وهذه الافكار يولد الانسان مزودا بها، ولا يستفيدها من الحواس.

ويؤكد ديكارت على ان فكرة اللامتناهي وفكرة الله هما من المبادئ العقلية الاساسية التي لا يمكن الشك فيها؛ فلا يمكن لنا ان نستفيد فكرة اللامتناهي من كائن متناه وغير كامل. فهذه الفكرة لم يركبها عقلنا بالاعتماد على التجربة، ولا هي من ابداع عقولنا الناقصة، وهو ما يؤكده ديكارت في كتابه **تأملات ميتافيزيقية**، حيث يقول: «اجد ان فكرة اللامتناهي سابقة لدي على فكرة المتناهي، أي ان ادراك الله لادراك نفسي، اذ كيف لي ان اعرف أني اشك وأرغب، أي ان شيئا ينقصني وأنني لست كاملا، اذا لم تكن لدي أي فكرة عن وجود أكمل من وجودي، عرفت بالقياس إليه ما في طبيعتي من عيوب». وعليه، فبما ان لكل اثر سببا، وان السبب ليس اقل واقعية من الاثر، وجب ان تكون فكرة اللامتناهي اثرا لكائن كامل يكون هو الصانع الحقيقي؛ وعليه فالله لا بد ان يكون موجودا، وما الفكرة التي امتلكها عن اللامتناهي سوى اثر من آثار صنعه، انه اثر الخالق

في مخلوقه، فهذه الفكرة معطاة لنا بالفطرة: ففي الوقت الذي أفكر فإن الوضوح والبداهة يجعلاني ادرك ان الله موجود. فهذه الفكرة لا يمكن ان تكون صادرة الا عن الله الذي غرسها في انفسنا منذ النشأة الاولى. وبهذا يصل ديكارت الى الله عن طريق الحدس، ولم يشعر بالحاجة الى شهادة من التجربة الخارجية، لأن الله لا يحتاج في نظر ديكارت الى ضمان من العالم الخارجي، بل على العكس، ان العالم الخارجي هو الذي يحتاج الى ضمان من الله، حتى لا يكون مجرد حلم. واذا كان الله موجودا، وأنني اشارك عن طريق الافكار الفطرية في كماله، فإن الخطأ عندئذ لا يكون نتيجة نقص اونطولوجي، وإنما هو ناتج عن قصور في ملكاتي. ولأننا نملك فكرة الكمال، صار من الممكن الاعتراف بلاكمالنا. فاللاكمال الذاتي، أي لاكمال الكائن المفكر، يفترض الكمال الموضوعي، أي انه يفترض وجود الله سبحانه وتعالى.

وقد كانت الفلسفة الغربية في القرن السابع عشر يسودها الاعتقاد بوجود هذه الافكار الفطرية التي تمثل حقائق بسيطة، موضوعية وغير ذاتية، كفكرة الله وفكرة النفس وفكرة الامتداد، وغيرها. وهي مبادئ أولية، ليس وراءها مبادئ، خصوصا فكرة الله؛ فهي تدرك بالحدس، من غير مقدمات، ومنها يستنبط العقل النتائج التي تلزم عنها؛ وبهذا يتم بناء المعرفة اليقينية التي تكون صادقة دوما ولا يمكن الشك فيها مطلقا. ويعتقد ديكارت أننا نحمل منذ الولادة مجموعة من المفاهيم والافكار التي غرسها الله تعالى فينا، كفكرة الله وفكرة المبادئ الرياضية الاختلفة، ومبادئ أخرى لا يمكن للعلوم ان تتأسس من دونها؛ وهذه المبادئ هي أشبه بقوانين المنطق من حيث أنها موضوعية، كلية، شاملة وثابتة.

المسلمة الثالثة: تتميز المعرفة العقلية بأنها كلية، يقينية، صادقة صدقا ضروريا، وقبلية، بمعنى أنها سابقة على كل تجربة، ولا يتطرق إليها الشك ابدا، ومنها يستنبط العقل النتائج التي تلزم عنها.

تتميز المعرفة العقلية بالضرورة والشمول؛ والمقصود هنا بالضرورة والشمول انسجام القضايا المعرفية وتوافقها مع قوانين العقل المنطقية، وتعميمها على جميع العقول البشرية في كل زمان ومكان؛ وهي قضايا لا يمكن ان تصدق مرة وتكذب أخرى، كقولنا: اذا كانت (أ) أكبر من (ب)، و(ب) أكبر من (ج)، كانت (أ) أكبر من (ج)؛ فهذا الحكم يكون صادقا دوما. والشيء نفسه يقال عن قوانين المنطق ومبادئ الرياضيات. ولهذا تشكل الرياضيات النموذج المثالي للعلوم، لأنها تطرح المشكلات طرحا واضحا بيّنا، وتملك المفاهيم والمبادئ التي تساعدنا في اكتشاف بعض الحقائق العلمية والبديهية واستنتاج مبادئ قبلية لا يمكن الاعتراض عليها. ويرى العقليون ان القضايا العقلية هي قضايا كلية صادقة صدقا ضروريا، ولا شك فيها البتة؛ ويعتبرون ذلك دليلا

على أنها من المبادئ العقلية البديهية؛ وهذه المبادئ هي حقائق واضحة بذاتها، ومن ثم كانت صادقة بالضرورة. ومن هذه الحقائق يستنبط العقل معرف أخرى تكون صادقة في كل زمان ومكان.

ان اليقين الملحوظ في العلوم الصورية، ونعني بها الرياضيات والمنطق، يمثل المثل الأعلى لليقين الذي نبحث عنه في العلوم الأخرى. ونحن نفتقد هذا اليقين في المعرفة التي تعتمد على معطيات الحس. ولهذا صار المنهج الاستنباطي الاستنتاجي افضل المناهج عند العقليين، وصاروا يعتمدون عليه في شتى فروع المعرفة، بل انهم اصطنعوا هذا المنهج حتى في مجال العلوم الطبيعية؛ ولما استقلت العلوم الطبيعية بمناهجها التجريبية، قوي اعتقادهم في ضرورة استخدام المنهج الاستنباطي الاستنتاجي في العلوم الانسانية والمعيارية، عسانا نستطيع بهذا تحصيل اليقين نفسه الذي يميز علم الرياضيات.

ويرى العقليون ان القوة العاقلة هي قوة فطرية موجودة لدى البشر جميعا، وهي الاصل الاولي الذي يصدر عنه كل علم حقيقي يريد ان يتصف بصفة الصدق الضروري والمطلق، وذلك بحكم ضرورته وشموليته. والمعرفة الاولية البديهية والقبلية، يراد بها في هذا المجال الحقائق التي تقوم في كل عقل؛ انها حقائق واضحة بذاتها، ومن ثم فهي حتما يقينية. ويراد بهذه الحقائق مبادئ المعرفة التي لا نحصل عليها اكتسابا، ولا تنشأ من التجربة، ولا هي من صنع العقل في تعميماته، بل هي موجودة في العقل بالقوة، وجودا سابقا ومستقلا عن كل تجربة.

ويجعل العقليون البداهة والوضوح ميزانا للحقيقة؛ وأما الاستنتاج فبه نتوصل الى معارف مركبة؛ ويجعله العقليون في مرتبة ثانية بعد الحدس. والاستنتاج هو عملية عقلية يمكننا من ان نستخلص من شيء نعرفه معرفة يقينية معرفة لازمة منها، تكون يقينية هي الاخرى. وفي الاستنتاج ينتقل الذهن من شيء معلوم الى شيء مجهول؛ وبهذا نتوصل الى بلوغ معرفة يقينية تكون صادقة دوما، في كل زمان ومكان. وهو الطريق الذي سار فيه الفلاسفة العقليون في القرن السابع عشر، ديكارت Descartes وسبينوزا Spinoza ولايبنتز Leibniz، وقالوا ان الحقائق الأولية موجودة في العقل بالقوة، وتدرك بالحدس وحده.

المسلمة الرابعة: ليست المبادئ العقلية حكرا على المعرفة النظرية المجردة وحدها، بل هي صحيحة أيضا في مجالات الحياة العملية؛ فمنها يستمد الفليلسوف الأخلاقي مبادئه الأولية، ومنها يستلهم المربون والمرشدون والناس العاديون مقاصدهم السلوكية، دونما حاجة الى برهان، لأنها واضحة بذاتها.

في مجال الأخلاق أيضا، كما في وسائر الشؤون العملية، يجعل العقليون العقل مصدرا ومعيارا يقيسون به سائر أفعالنا الخلقية وأمورنا العملية. ويرى العقليون ان المبادئ الخلقية لا تحتاج هي الأخرى الى برهان، لأن ما في القوانين الخلقية من قوة موجبة للعمل، وما تتصف به من عموم وشمول، يحملنا على اعتبار هذه القوانين

أمورا مستمدة مباشرة من طبيعة العقل العملي نفسه. وقد ذهب بعض العقليين في مجال الأخلاق إلى اعتبار القوانين الخلقية في المستوى نفسه مع المبادئ الرياضية وقوانين الطبيعة، أي ان القوانين الخلقية لا تقل بداهة ووضوحا عن القوانيني الرياضية والطبيعية، وأنها تفرض نفسها علينا مثلها مثل الأوليات الرياضية والمنطقية. وكما يعد علماء الرياضيات والطبيعة المبادئ الأولية في علومهم بديهية ولا تحتاج إلى برهان، يعتبر فلاسفة الاخلاق من اصحاب النزعة العقلية المبادئ الخلقية بديهية هي الأخرى، وأنها تستغني عن االبرهان. ويرى هؤلاء ان المبادئ الخلقية ليست تابعة لأي عامل من العوامل الخارجية، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو دينية أو سياسية، وأنها تفرض نفسها كحقيقة موضوعية مستقلة عن كل ارادة انسانية أو إلهية، لأن الخير هو خير في نفسه، وليس في وسع أحد أن يجعل الخير شرا، والشر خيرا.

ويمكن لنا ان نوجز المذهب العقلي بقولنا أنه المذهب الذي يجعل من العقل تلك القوة التي نحدس بها الحقائق البديهية الثابتة، والتي تشكل أساسا لجميع معارفنا. ويجمع العقليون بين الحدس والاستنتاج، حيث يوفر الحدس الأرضية الصلبة التي لا يمكن للشك أن ينال منها؛ وأما الاستنتاج فهو يستعمل من اجل اكتشاف المجهوا انطلاقا من المعلوم عن طريق الآليات العقلية الصحيحة. ولا يفرق العقليون، في بحثهم عن الحقيقة، بين موضوعات معرفية وأخرى، نظرية انت أو عملية، ميتافيزيقية أو اجتماعية وسياسية، من حيث أنهم يعتمدون في كل ذلك على العقل وحده.